البحثُ العلميُّ في فترة العصر الذهبيّ لليسار اللبناني

أبحاث

رشيد الضعيف

تنبيه

هذا ليس بحثاً، هذه مقالة قسمتها إلى قسمين، قسم أول تناولت فيه علاقتي بالبحث العلمي في فترة العصر الذهبي لليسار في لبنان، ثم في فترة الحرب التي تلتها، وقسم ثان سجّلت فيه ملاحظات وأفكاراً وآراء، عن مسألة البحث العلمي والجامعة اللبنانية وإمحاء الحدود بين المثقف والباحث.

المرحلة الثورية

كان الأمر بديهياً بالنسبة إلي، في مرحلة ما قبل الحرب التي ابتدأت عندنا في لبنان عام ١٩٧٥، أن أتوقف عن محاولة كتابة الشعر لأنصرف إلى ممارسة العلم، لأني كنت أعتبر نفسي مناضلاً، والمناضلُ كما هو معروف، شخصٌ يسعى، داخل حزب أو نقابة أو منظمة، ليحقق انتصار القضية التي يؤمن بها. وكان علي إذاً، كمناضل، أن أحدد الوسائل المناسبة لتقدم قضيتي، وأن اعتمدها. وكانت أهم تلك الوسائل قاطبة بالنسبة إلي كمثقف ثوري، الروح العلمية. وبالروح العلمية كنت أعني الموقف النقدي من الموروث والمجتمع والعالم، وكنت أعني أيضاً الصرامة في التفكير وفي استعمال المفاهيم. ثم الاقتصاد في القول، ليقتصر على المفيد منه، والتخلي بالتالي عما سمّيناه في ذلك الوقت إنشاء، وقصدنا به الكلام المتدفق على هواه بلا مرجع علمي أو ضابط معرفي، وقصدنا به أيضاً الكلام المغاير بل المضاد للنظم المفهومية الاصطلاحية.

وكان في ذهني أن هذا الأسلوب البعيد من الروح العلمية، يمت بصلة قرابة إلى الشعر، بل إن الشعر شيء مثله، مع أن الشعر كان هوايتي وثقافتي الأولى في تلك الفترة. وكنت في الحقيقة وفي مكان ما من نفسي، أخجل حين يقال عني إني شاعر، لأن هذه المفردة كانت

تعني عند الكثير الكثير من الناس عدم الجدوى، وفقدان الدَّسَم في الشخص وفي القول. وكنت تحمرّ أذناي خجلاً حين أسمع أحداً (على التلفزيون مثلاً) يصف قولاً «فوفاش»، وغير متزن بأنه شعر! كنت بحركة لا إرادية أحذر ألاّ يراني، أو ألاّ تقع عيناه على عينيّ مثبتتين فيه وهو على الشاشة!

الحقيقة أني كنت ككثيرين غيري، بل ربما على خطى الكثيرين غيري، أعتقد أن الروح العلمية تتناقض مع كل نشاط شعري. فالشعر عندنا كثير، والشعر كلام، ونحن العرب لا نجيد إلاّ الكلام، وكان الكلام مسؤولاً عن هزيمتنا بعد عام ١٩٦٧، وأشياء من هذا النوع طبعت أذهاننا وحددت أفكارنا (لا أقول هذا الكلام على سبيل الانتقاد أبداً ولا على سبيل التبني، بل من باب الوصف وحسب).

لذلك كنت أعتقد، ككثيرين غيري في تلك الفترة، أن من مهمّاتنا الأولى كمثقفين ثوريين، هو أن نسعى لتنمية الروح العلمية عندنا في أنفسنا، وفي المجتمع كله ما استطعنا. كان هذا من مهماتنا الملحّة، لأنه مرتبط مباشرة بالتصدي للعدوان الإسرائيلي. كان هذا سلاحاً ضرورياً لا يمكننا مواجهة إسرائيل من دونه. وفي ذلك الوقت كان كل شيء مرتبطاً بمواجهة إسرائيل، وكانت هذه المواجهة هي مقياس جدوى كل نشاط نقوم به، في أي ميدان كان من الميادين: العلم والمعرفة والثقافة والأدب بأنواعه، والتقدم والتحرر والاشتراكية والوحدة. كان شعار «كل شيء من أجل المعركة» سائداً حقيقةً، لا يعلو عليه شعار.

لذلك توقفتُ عن نشر محاولات شعرية، كنت بدأت بها، وكانت بدأت تحتل قسماً كبيراً من اهتمامي.

وكان نشر الروح العلمية في تلك الفترة يعني لنا، نحن الفصيل الماركسي (الشيوعي) من فصائل حركة التحرر العربية، نشرَ الفكر الماركسي الذي هو وحده الفكر العلمي، أي النقيض الفعلي للفكر المثالي ولكل تجلياته الإيديولوجية.

هنا أجد من الضروري أن أتوقف قليلاً عند هذا الفكر العلمي ـ الماركسي لأذكر ما بلغنا منه وكيف فهمناه، لأن «ماركسيتنا» كانت على ما أظن في أساس الصدمة التي حدثت لنا في ما بعد:

باختصار شديد، فإن ما يحدد الطبقة الاجتماعية في الماركسية، هو موقعها من عملية الإنتاج، وأن أساس المشكلة هي الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج. وإن عصب الهيمنة البرجوازية هي ملكيتها لوسائل الإنتاج. لأن هذه الملكية هي التي تسمح بتحويل قوة العمل إلى بضاعة، والبضاعة هذه من نوع مميز جداً، وميزتها أنها بضاعة يُنتِج استهلاكُها قيمةً أكبر من ثمنها (فائض القيمة)، لأنها مشتراة بسعر يساوي كلفة صيانتها فقط. إن الماركسية قالت بضرورة إنهاء الاستغلال الطبقي هذا (عندما يمتلك الإنسان قوة عمله يمتلك كامل إنسانيته. إنه المنطق عند غايته). ويكون هذا الإنهاء بالثورة. فالثورة هي الوسيلة الوحيدة المتوافرة، حتى تصبح وسائل الإنتاج ملكاً للطبقة العاملة، وبالتالي للمجتمع (لأنه ليس هناك طبقة أدنى من الطبقة العاملة لتستغلها هذه الأخيرة).

ثم جاء لينين وطوّر نظرية دكتاتورية البروليتاريا التي لم يتناولها ماركس (وانجلز) بالتوسع اللازم (لماركس وانجلز النظر، وللينين العمل والممارسة ـ البراكسيس).

أما الدولة فأداة استمرار هيمنة البرجوازية على الطبقة العاملة، لذلك فإنها قد كتب لها الاضمحلال، لأن زوال المجتمع الطبقي بانتصار الطبقة العاملة سيزيل الشروط الموضوعية الداعية إلى وجوب وجود الدولة.

إن الماركسية مارست عليّ سحراً (ولاتزال)، لأنها مساهمة رائعة في السعي لخلاص البشرية من استعباد الإنسان للإنسان. إن الإنسان، وفي كل وقت، وبخاصة اليوم، إذا لم «يُردع» جعل الإنسان عبداً له لا محالة. إن ذلك في طبعه.

إذاً، إذا كان بعض الدارسين أمثال ريمون أرون (Raymond Aron) يعتبر أن مشكلة المثقفين تكمن في عدم معرفتهم كيف يوفّقون بين الأخلاق والسياسة، فإننا نحن المثقفين الثوريين في بيروت قد نجحنا في ذلك، ووفّقنا بين الأخلاق والسياسة، بتبنّينا هذه النظرية الماركسية المنزهة.

لكن هذه النظرية الجميلة المتماسكة الساحِرة المريحة، التي تضع الإنسان، الباحث عن دعم أخلاقي لحاجته، في المكان المناسب (فهل يمكن أن يكون المال إلاّ حيث الروائح النتنة!)، لكن هذه النظرية تَحوّلت فجأة إلى خارج الموضوع حين ابتدأت الحرب في لبنان.

بل إن هذه النظرية غابت نهائياً عن الموضوع، وعن خارجه، حين استقرت هذه الحرب، بحيث إننا بتنا مع الوقت ننفجر بالضحك إذا ما استخدم أحد المتكلمين، عفواً، مصطلحاً طبقياً في أثناء الحديث. كنا كأننا نكتشف حدود معرفتنا، واتساع غبائنا.

بل كنا ننفجر أحياناً (بالضحك) حتى الاختناق: فلماذا ولماذا ولماذا وكيف؟... واليسار ضد اليسار، واليمين ضد اليمين، واليمين ضد اليسار، والمسيحيون ضد المسلمين، والمسلمون ضد المسيحيين، والمسيحيون (الخائفون) بعضهم ضد البعض الآخر حتى الموت، بل حتى الانتحار الجماعي، والمسلمون ضد الفلسطينيين والفلسطينيون ضد الشيعة والشيعة ضد السنة والسنة ضد الدروز. وإسرائيل. والعكس.

والمنظمات الفلسطينية والأحزاب المحلية الانعزالية والوطنية والقومية والتقدمية، وال... و... إلخ.

والقبائل تجابه العشائر، والعشائر يجابه بعضها البعض الآخر أيضاً، والقوى المختلفة.

والمناضلون الملحدون يوزعون صور الإمام الخميني، والمؤمنون يصلّون على الملحدين.

وسوريا ومصر والسعودية وليبيا والعامل الإقليمي والعامل الدولي والعامل المحلي...

ودماء ودماء ودماء، وآلام وأحقاد ودماء...

أكبر من العقل كان لبنان، وبيروت عَصَتْ على الدماغ!

وليست الماركسية وحدها التي باتت غريبة عن هذا الواقع المستجد، بل كل عقلانية أيضاً. فكيف يمكن، والحالة هذه، أن يفهم من أراد أن يفهم، أو أن يقول من في نفسه شيء أراد قوله؟ وبكلام آخر، فما هو الكلام الذي بات يجب أن يقال الآن، بعد أن انتهى الكلام الذي كان يقال في السابق؟

الأدب الملجأ

في هذا الجوّ ولد مسرح وشعر ونثر ورواية وأغنية «جديدة»، هو ما نقصده اليوم حين نتكلم على أثر الحرب في التعبير الفني.

وفي هذا الجو عمل زياد الرحباني، وفي هذا الجو كان شعراء «المتاريس».

وفي هذا الجو، فيما يعنيني أنا، عدت إلى الأدب لـ«أقول»، لأن أنواع العلوم الأخرى باتت خارج الموضوع كما ذكرت، أو أنها باتت بلا معنى، كالنقد الأدبي الذي هو موضوع اختصاصي الجامعي الأول، أو الألسنية التي هي موضوع اختصاصي الآخر. فلم يبق لي إلاّ الأدب، وبخاصة أنني اكتشفت في تلك الفترة، أنني لم أتوقف نهائياً عن الكتابة في مرحلة نشر الروح العلمية، بل ظللت أكتب، وإن نادراً، من غير أن أنشر أبداً. كنت أكتب في آخر الليل، ليس لأكتب، بل قبل أن أغفو، في أثناء أَرَقي، لكي أغفو. وكنت لا أرمي ما أكتبه بل يبقى هكذا على أوراق في درج قرب تختي، أو على رف، أو في زاوية لا تبلغها اليد دائماً.

كان ذلك بالتحديد، بعدما انفجرت سيارة مفخخة، مقابل مدخل البناية التي كنت أسكن فيها، وقتلت عدداً من الناس، بينهم المستهدف بالعملية. أما أنا فقد نجوت. وقد نجوت فعلاً بصورة لا تُنسى. فحين خرجت من البناية رأيت هذه السيارة التي ستنفجر بعد قليل، وكانت من نوع من السيارات أحبه، وكنت أحلم دائماً ببيع سيارتي لأشتري واحدة مثلها، فتوقفت قربها، ثم درت حولها دورة أتأملها، وأتأمل ما فيها، وأتأمل لون فرشها والتابلو والمقود... إلخ. ثم ذهبت إلى الجامعة، حيث مكثت نحو ساعة عدت بعدها إلى البيت، وفي أثناء عودتي انفجرَتْ، أي قبل وصولي بلحظات ربما لا تبلغ الدقيقة أو الدقيقتين، وجاء وقتها «المحققون» و«حققوا».

في تلك الأيام إذاً بالذات، «اكتشفت» أني أكتب، وأني ما توقفت نهائياً أبداً عن الكتابة وإنْ توقفت عن النشر، فعدت إلى أوراقي، وجمعت ما رأيت منها صالحاً للنشر ونشرته. ثم بعدها «صرت أكتب».

في تلك الفترة عرفت كم أن الأدب مناسب لي، ورأيت أن العلم نظام من المصطلحات ومن المهارات لا يعنيني، وأنه رياضة كلامية لا عافية لي عليها ولا حَيْل، ففي تلك الفترة كتبت العبارة التي ضمّنتها كتابي «لا شيء يفوق الوصف»: «سبقني الوقت ولا حَيْل لي لأركض، فركضت من دون حيل!».

أحسست وقتذاك أن الأدب متحرك، وأن النظام الاصطلاحي الذي يَرى به العلمُ موضوعَه جامد، بل شيء من الماضي. نعم! غريب! أحسستُ أن العلم شيء من الماضي، عتيق، لا يَسعى بواسطته إلاّ من تقطعت به السبل!

أحسست أن الأدب وحده، من بين كل أنواع القول، قادر على تلبية حاجتي إلى البوح. وكانت حاجتي في تلك الفترة تحولت إلى الرغبة في البوح، البوح فقط، لكن البوح البوح، فلم يعد فهم الواقع ما يعنيني، ولا القوانين التي تتحكم فيه. لم يعد الأمر كما كان في الماضي.

أما البوح فكان بهذه المشاعر التي استثيرت فينا ونحن في هذا الطوفان... مشاعر الدهشة والاستغراب والقرف والقلق والعجز.

والتفاهة!

وأقصد بهذه المفردة ـ تفاهة ـ معنى الكلمة الفرنسية Absurde. فأي علم يستطيع أن يقول هذا الشعور الذي تصبح معه دمعة في العين كنقطة ماء على لوح زجاج... هذا الشعور بالتفاهة والعبث واللامعنى.

كنت أعتقد قبل تلك الفترة أني كإنسان مركزُ الكون، وأني إذا ما وقعتُ في صعوبة فسأجد حولي، إلى جانبي، نصف سكان الكرة الأرضية، لكنني فوجئت بأنني بالفعل لست شيئاً، ولا أحد غيري يساوي شيئاً (عظيماً كان هذا الغير أم متواضعاً). وأن الإنسان كَمّ هَمَلٌ بلا جدوى، يسعى وحده في عالم بلا معنى، وبلا هدف، وبلا طعم.

فأي علم يستطيع أن يقول هذه المشاعر القاسية، وأي مصطلح يستطيع أن يقول هذا الذي كنا نشاهده، مما لو أُخبرنا به سابقاً لما كنا صدقنا منه شيئاً! فدقَّة المصطلح كانت تتنافى مع سائلية الواقع، وكانت تتعارض مع ديمومة حركته، وديمومة تحوّله، وفراغ محتواه. وليس إلاّ الأدب بطبعه قادر على حسن الأداء، وعلى التكيف وعلى التحول وعلى الالتباس وعلى الغموض وعلى الفراغ، فطبعه هوى، وطبعه متمَدِّد، وينحسر إن شاء وما شاء. إنه العالَم الذي يؤالِف في حضنه بين المتناقضات، أو لا يؤالف بينها، إنه الضد وضده، والشبه والنقيض، والظل وغياب الضوء (لا يخفى على القارىء هنا أني أحاول «وصف» ما كان يجري في أثناء الحرب في بيروت، وفي المناطق الأخرى كافة، بكلام لا يمكن الإمساك به، محاكاةً للواقع ـ أي للحرب).

الجامعة يبلغها الطوفان سريعاً

وما كان يساعدني على مجافاة العلم والابتعاد منه، أن وتيرة العمل في المكان الذي كنت أعمل فيه، أي الجامعة اللبنانية، كانت وتيرة متدنية جداً، في أدنى درجاتها. كانت الجامعة اللبنانية مشلولة شلل الدوائر الرسمية الأخرى، وقد تهمّش دورها بسرعة (فالأهمية أُعطيت للمؤسسات المرتبطة بالحرب مباشرة)، وبلغها الخراب فوراً، بحيث إن الأستاذ صار يلتفت أحياناً (وهذا ليس في وسط الحرب أو في آخرها، بل في المرحلة الأولى منها)، ليقع نظره على بائع علكة يتجول بين الطلاب ساعياً في رزقه، وكثيراً ما تحوّلت قاعات التدريس إلى مكان لقضاء حاجة من قبل مهجَّر، أو عابر هائم، وظهر السلاح في باحاتها وفي الداخل أيضاً، فكم من مرة هدد طالب مراقباً في أثناء الامتحانات بمسدسه ليمتنع عن مضايقته وهو ينقل عن كتاب أو عن جاره. لقد دخل ماء الطوفان الجامعة بسرعة فائقة، وصار العمل فيها «ع الرَّلَنْتي» فعلاً، ما يسمح فقط بممارسة طقوس إعطاء الشهادات للطلاب، ودفع أجور الموظفين والأساتذة. ما مفاده أنْ «نحن هنا!». (هذا اختصار شديد طبعاً. اختصار لوضع بالغ التعقيد. وفي كل اختصار تعسّف لا ريب).

بل صار التدريس بالفعل عملية شاقة، صار نوعاً من تعذيب للذات وللآخرين، فما نفع أن تتابع الكلام في الصف، أنت الأستاذ، بعدما تسمع انفجاراً، تتبعه أصوات سيارات الإسعاف المُلحّة، ثم رصاص غزير (لتأمين الطرقات إلى المستشفيات). في هذه الأثناء يكون الطلاب قد عمدوا إلى فتح الراديوات التي في حوزتهم (على الدوام)، والموضوعة بين كتبهم ودفاترهم

وأقلامهم، لمعرفة مكان وقوع الانفجار، وما أسفر عنه من قتلى ومن جرحى ودمار، ثم ينتظرون على نار أن تعلن أسماء المصابين... وتكون أنت الأستاذ، تتكلم مثلاً على طبيعة الضاد الصوتية، وعلى تحوّل هذه الطبيعة عبر الحقب المتعاقبة، مستنداً في ذلك إلى ما جاء عنها من وصف في كتب اللغويين العرب القدماء. وبالفعل سألني مرّة طالب مضطرب عن نفع هذا الكلام، فأدخلت أصابع يديّ الاثنتين في شعر رأسي وشددت وسكتّ، لكنني قلت له بعد لحظات من الصمت المتوتّر، وبشيء من العصبية، لماذا تأتي أنت إلى هنا، ماذا تريد، تريد شهادة وحسب، بلا مقابل! وما زلت أذكر أن هذا الطالب سكت، ولم يقل شيئاً، وكأنه فوجىء برد فعلي، وظل ساكتاً طوال الوقت لا يسأل ولا ينصت، ثم بعدما انتهى الدرس خرج مسرعاً، لا يلتفت يميناً ولا يساراً، ولا يبدي أي حركة يستفاد منها استفزازاً أو قلة تهذيب. ولم أعد أراه. لم يعد بعد هذه الحادثة أبداً إلى الصف، وتغيب عن امتحانات آخر السنة، فخسر شهادته، بينما الجامعة ظلت تمنح الشهادات. فهل لي الآن أن أعتذر منه عن الذي جرى، عن حرماني له من الشهادة التي كان استطاع العمل بها مدرّساً في الجامعة، ككثير من زملائه. علّه يقع على هذا الكلام ويقرؤه ويتذكر.

أمّا وقد هدأ الطوفان

أما وقد هدأ الطوفان الآن، ومضت فترة الأزمة هذه، وبدأت عملية إعادة الإعمار، وتقدمت، وعاد الاهتمام إلى المؤسسات الرسمية، وبينها الجامعة اللبنانية، فإني أتساءل الآن: أهو العلم الذي هوى وجرفته الحرب، أم أنه فهمي له؟

إنّ فيّ اليوم رغبة تنمو من جديد، رغبة في فهم الأشياء. لقد عادت هذه الرغبة بعدما هجرتني سنوات طويلة جداً. إن للسلم (كما للحرب) رغباته الخاصة به. لذلك أُفاجىء نفسي أتقدم نحو الأشياء بخجل وخفر وحياء، أُسائلها من جديد، وأنتظر جواباً. أريد أن أفهم الواقع من جديد! أريد أن أعود إليه، إلى العلم، بلا أن أترك هذا الملجأ الحصن ـ الأدب، الذي صان نفسي في أثناء تلك الحرب التي، وإن انتهت، ستبقى إلى الأبد (الحربُ المقيمةُ ونحن العابرون!). لكنّ هذه العودة أمامها حواجز كثيرة جداً، وربما كان من المستحيل التغلب عليها كلها، وهذه الحواجز منها ما هو جوّانيّ عائد إليّ، إلى نفسي وتجربتي، ومنها ما هو برّاني يرجع إلى الجامعة اللبنانية وإلى البلد كله. أما الحواجز الجوانية فمتعلقة بالتساؤل الذي لا يندمل الذي تركته الحرب في وجداني، حول إمكانية العلم بالذات! وحول جدوى هذه العلوم المختلفة، والثقة بها، بل حول العقلانية نفسها، ومدى ما يمكن الركون إليها. وهذه تساؤلات أعرف أن الإجابة الضرورية عنها صعبة جداً، وأعرف أنني لا أستطيع الخوض فيها لنقص عندي في العدة اللازمة، فهذا موضوع لا أملك أدواته، وإن كنت أملك تجربة تسمح لي بالكلام عليه من زاوية خاصة كما فعلت أعلاه. أما من الناحية البرّانية العائدة إلى مكان عملي، أي الجامعة اللبنانية، وإلى التركيبة الاجتماعية الاقتصادية التاريخية الـ... إلخ، التي هي لبنان، فإنني أرى نفسي قادراً على سرد الملاحظات التالية:

أمّا الجامعة وقد هدأ الطوفان

أعود إلى الطالب الذي قدمت إليه اعتذاري لأقول إن هذا الموضوع، موضوع ما يُقدَّم إلى الطالب بعامة من علم، وما يعطيه هذا الطالب مقابل منحه الشهادة، يرجع إلى ما قبل الحرب، وبخاصة إلى السلطة اليسارية في الجامعة. فقد كنا نحن اليساريين سلطة أولى في الجامعة، من حيث التأثير في مسيرتها والفعل فيها. فديمقراطية التعليم التي ناضلنا من أجلها، والتي كانت شعاراً دائماً لنا، ترجمناها في الواقع، على أنها حق للطالب بالنجاح عند انتهاء السنة الدراسية. وقد أقمنا اعتباراً كبيراً للمنشأ الاجتماعي للطلاب في تقويمنا لمستواهم الأكاديمي (إلى آخره...).

ولم يكن هناك مقياس أكاديمي محدد وصارم على أساسه يُقبل الأستاذ أو يُرفض، فكان موقف الأستاذ السياسي يمثل عنصراً أساسياً في قرار قبوله أو في قرار رفضه (وإلى آخره...)، لأن الجامعة في الأخير، كانت حلبة صراع مهمة بين الفئات المتصارعة في لبنان، وعبر لبنان، وعلى لبنان.

صحيح أن الوضع كان أفضل من اليوم كثيراً، لكنني على الرغم من ذلك، لا أذكر أننا قمنا بإضراب عام وشامل من أجل إنشاء مكتبة مثلاً! ولم يكن عندنا في كلية الآداب مكتبة، نعم! كان عندنا ربما نواة مكتبة. وهذا كان قبل تفريع الكلية، هذا كان حين كانت الكلية مجتمعة، كلها، في مكان واحد، في شارع الماما في منطقة الأونيسكو في بيروت، عندما كان يقصدها طلاب لبنان من كل أنحاء لبنان، وكذلك الطلاب العرب والأجانب. أقول بصيغة الماضي، لم يكن عندنا مكتبة، فأوحي كأن الأمر اليوم تغيّر، لا! لم يتغير الأمر بل ساء... وساء على نحو لا يمكن أن يتصوَّر عقلُ عاقلٍ لا يتابع الأمر من قرب، مدى ما يؤدي إليه من خراب.

إن الجامعة اللبنانية، هذه المؤسسة التعليمية الرسمية، التي تكلف خزينتنا مئات الملايين من الليرات اللبنانية الغالية، والضرورية لقطاعات شتّى، لا أظن أن أحداً من الرسميين (وغير الرسميين) يعرف ما يريد منها كمؤسسة، بل ربما أن بعض الرسميين (وبعض الفاعلين) يعدها شيئاً مزعجاً يجب التخلص منه، إن لم يكن الآن، ففي الوقت المناسب. ولا أظن أيضاً أن أحداً من العاملين فيها، أساتذة كانوا أم طلاباً أم موظفين، يعرف أيضاً ما يريد من هذه المؤسسة سوى أنها باب ارتزاق. وهي اليوم، أكثر من أي وقت مضى، باب ارتزاق وحسب، لذلك فهي باتت واحدة من دوائر الدولة المترهّلة بالمستخدَمين، من كل الرتب والوظائف (أقصد الجهازين التعليمي والإداري) بلا سبب «إنتاجي»، إلاّ قدرة «الموظف» على التوظيف.

فأي بحث سينتج من هذه «الخبيصة»!؟

الجامعة طقس بغائية أخرى

فأي بحث إذاً سينتج من هذا الوضع المتداعي؟

لقد تحوّل كل شيء في هذه الجامعة، إلى طقس يُمارَس بغائية أخرى، لا علاقة لها بالغائية «الأصلية» التي كانت لها الأشياء في «الأصل»: فإذا كان (كما تعلّمنا) لكل علم

موضوع، وجهاز مفهومي هو أداة فهم هذا الموضوع، يكون البحثُ عند ذاك، استعمالَ هذه الأداة للتقدم في فهم هذا الموضوع، ثم (وهذه وظيفة أخرى للبحث ليست في طبيعته) يُستخدم هذا البحث مقياساً لتدرج الأستاذ وترفعه (هذا ما يقتضيه المنطق)، لكن الممارسة اليوم هي أنه غالباً ما لا تكون للبحث علاقة بالعلم كما حددناه، ومع ذلك يبقى يفعل فعله في عملية الترقي (قلت غالباً وأود أن أكون أكثر إطلاقاً).

إن البحث الذي يهدف إلى تقدم المعرفة بموضوع العلم، صار «بحثاً» يهدف إلى ترفيع موقِّعه وترقّيه في سلّم المراتب الجامعية. والآليّة المعدّة لـ «إنتاج» البحث، التي هي جزء أساسي من الجامعة، تحوّلت إلى سُلّم وحسب.

امّحاء الحدود بين الجامعي والمثقف (والأديب)

إن هذا الكلام يقودني رأساً إلى ما يأتي:

أعتقد أن أمراً خطيراً يجري لنا، وعبرنا، وتحت أعيننا، لا بد من التنبه له وإلاّ تفاقمت الحالة بنا سوءاً (وما سأقوله لا يعني لبنان وحسب على ما أعتقد، بل يعني الجامعات العربية كلها وربما جامعات العالم الثالث كافة):

إن الفرق بين الباحث والمثقف يتلاشى، وهذا أمر خطير! بل خطير جداً! والخطر يجيء بخاصة من أن الأستاذ الجامعي أو الباحث هو الذي يتحوّل إلى مثقف، بل إن حلمه هو كذلك.

وتتضح هذه الخطورة حين نتنبّه إلى أن المثقف عندنا، قد لَبْنَنَ أو عرّب التقليد التاريخي الذي أرست شروطه الثورة الفرنسية (وبخاصة فلسفة الأنوار التي نادت بسلطان العقل، وبطيبة الطبيعة البشرية، وبحق الإنسان بالسعادة، وبالمساواة... إلخ) والذي كانت انطلاقته قضية دريفوس، وهو ضابط فرنسي، من عائلة يهودية من الألزاس الفرنسية (١٨٥٩ ـ ١٩٣٥)، اتهم بالتجسس لمصلحة الألمان استناداً إلى وثيقة مزورة، وحوكم وسجن. وفي عام ١٨٩٨ كتب الروائي الفرنسي الشهير إميل زولا مقالاً بعنوان: «إنّي أتهم»، بشكل كتاب مفتوح إلى رئيس الجمهورية، يفضح فيه كل من له علاقة بهذا الحكم الجائر. ومن هذا التاريخ راحت الحياة السياسية الفرنسية تُشحن، وانقسمت فرنسا إلى مؤيد لإعادة المحاكمة، وكان أغلب هؤلاء من اليسار الليبرالي، وإلى معاد لإعادة المحاكمة، وأغلبيتهم من اليمين المحافظ والمعادي للسامية. وفي الأخير برّئ دريفوس عام ١٩٠٦ وبيضت صفحته وأعيد إلى الجيش برتبة عالية، بعدما تركت قضيته أثراً لا يمحى، وأحدثت أزمة عميقة خضت المجتمع الفرنسي عميقاً.

بل إن المثقف عندنا صار مهنةً، حدُّها الشخص يدافع بالقلم عن الوطن ضد الاستعمار والإمبريالية، وعن الشعب ضد الأنظمة، وعن الفقراء ضد الأغنياء... إلخ. ومكاناً يُطل منه على الناس عبر الجرائد اليومية أو الصحافة الدورية، حيث يجني رزقه في الغالب الغالبَ. أقول إذاً إن حلم الأستاذ الجامعي بات أن يتحوّل إلى مثقف يخدم وطنه نضالاً من على صفحات الجرائد.

فهل لاحظنا يوماً أن المكان الذي ينشر فيه الأستاذ الجامعي «بَحْثَه»، هو الجريدة اليومية! وأن «البحث» الذي ينشره هذا الأستاذ الجامعي نفسه في مجلة «متخصصة» هو «البحث» نفسه الذي ينشره في جريدة يومية! هذا يعني أن الأستاذ الجامعي (الذي هو باحث عامة) بات لا يتقن إلاّ مستوى واحداً من اللغة، هو مستوى اللغة الصحافية اليومية! ونحن نعرف بالطبع ما خصائص اللغة الصحافية اليومية من عمومية، وكلية، وتدارك الفروقات اللطيفة بتحاشيها، والسرعة، والإثارة، والذهاب مباشرة إلى الاستنتاج لقلة الصبر، وإصدار الأحكام، واليقينية، واتخاذ المواقف (كأن العلم اقتراع)، والإغراء. نعم والإغراء!

إن من أهداف الكلام الثقافي أن يُطرب لا أن يُقنِع، وأن يسحر لا أن يُفهِم. إنه كلام في طيّاته نرسيسية لا تخفى، وذلك بخلاف الكلام العلمي المشبع بالتنسك والحذر، والذي من طبيعته الذهاب إلى الجوهر مهما كان صعباً.

إن هدف العلم معرفة موضوعه، بينما هدف الثقافة (في صحافتنا على الأقل) الإغراء، والفرق بين الهدفين خطير أكثر مما نتصوّر. إنه الفرق بين العلم وضده.

إن ما ننشره نحن الأساتذة في الصحافة هو مُتُون أعمالنا وليس تبسيطاً لهذه الأعمال أو تيسيراً. فلا يخطرن في البال أننا، ومن وقت إلى آخر، نخرج من عزلتنا كباحثين، ونُطلع الناس بواسطة الجرائد، وبأسلوب ميسّر مبسَّط، عما بلغه علمُنا العميق في مختبراتنا. لا! إن ما نكتبه في الجرائد نحن أساتذة الجامعة (وتتساوى في ذلك كل الجامعات) هو زبدة أعمالنا وهو المتن والأساس، وهو نفسه الذي «نعرّف» به شاعراً على منبر، أو سياسياً، أو محاضراً في أمر نجهله حتى التخمة.

بل ما من أحد منا يكتب إلاّ ليغيّر في مجتمعه. وينتقل به نحو الأفضل. فالمواطن الحق هو الذي لا يكتفي بالمراقبة بل بالانتقال إلى العمل (الوطني) الجاد. لأننا جميعنا نعتبر أنفسنا ملتزمين بمعنى من المعاني. والملتزم هو الذي يحدد موقفه من القضايا السياسية والإيديولوجية ويعلنها جهاراً ويضع علمه وموهبته في خدمة ما يؤمن به. فعلم العالم لا نفع منه إذا لم يكن هدفه النفع العام، وأول النفع العام عندنا خدمة الوطن وقضاياه، في التحرير بخاصة والوحدة والتقدم، من هنا كان شعار العلم في خدمة الوطن، أو في خدمة المجتمع، أو في خدمة الشعب، وهو شعار نادراً ما يسائله الأستاذ ـ المثقف. فأغلب علمنا هادف إلى نهضة المجتمع وحسب.

وما يجري على العلم والثقافة يجري على الكثير من أدبنا. فأدبنا أيضاً يشارك في «المعركة»، فيروح يصف المرحلة، ويحدد العلة المسبِّبة كبوتَنا، بحيث لا يبقى بعد هذا الوصف وهذا التحديد إلاّ اتخاذ القرار السياسي المناسب... ليُزال العطل. وهذا مفهوم للأدب طبع الأدب العربي بطابع الرسولية، أي أن الأديب رسولٌ، هدفه نهضة شعبه. فالأديب شاهد على الآلام التي يرزح تحت ثقلها شعبه، وعلى الزمان الرديء الذي يمتاز به عصره، بل أكثر من ذلك، فهو مشارك مباشرة في النضالات التي يخوضها هذا الشعب، من أجل حريته ونصرة قضاياه المحقة، بل إنه جزء منها، بوصفه لسان حال هذا الشعب والمعبر عن أحلامه وطموحاته.

أما اليوم وبعدما «انهارت» النظريات الكلية وانهارت الأنظمة الاشتراكية، فإن الأديب المثقف انتقل إلى الدفاع عن حقوق الإنسان في حياة حرة كريمة وفي المجال السياسي أيضاً.

... بهذا الفهم وهذه الممارسة تَمّحي الحدود بين المثقف والباحث والأديب، ليتحوّلوا جميعهم إلى مثقفين، أو إلى معشر واحد من الناس يجمع بينهم الكثير، ولا يفرق بينهم إلاّ القليل، فيصبح في مقدورهم لذلك أن ينضووا، على قدر واحد من المساواة، في جمعية واحدة، أو نقابة واحدة، أو في اتحاد للكتاب واحد.

لقد وهنت الحدود بين الجامعة والصفحات الثقافية (والفكرية) في الصحافة اليومية أو الدورية، فصارت الجامعة معبراً إلى هذه الصفحات، وصارت هذه الصفحات معبراً إلى الجامعة.

أما الأدب فإنه يتمتع بسماح عبور إلى الاثنين، بلا مشكلة موضوعية (نسبة إلى موضوع الكلام المشترك). فهو الصوت الصارخ المجلجل.

بل إن السياسة لها جولات ثقافية أدبية أيضاً، فكثير من السياسيين يتبنون أسلوباً ثقافياً وأدبياً (أي نهضوياً)، فتعمر بأصواتهم قاعات المحاضرات (وأغلبها مرتجلة) في الجامعة اللبنانية، وكذلك في الجامعات الأخرى الخاصة (حيث هذه القاعات أصيلة).

فما زالت الكلمة العليا لـ«المعركة». وستبقى الكلمة العليا لـ«المعركة»، بحكم العادة على ما أعتقد، وبحكم أن الحق دائم، وبحكم عدم الرضا عن المرحلة السابقة. وأنّ عدم الرضا هذا سيظل يفعل فعله، وإنْ تحوّلنا إلى مرحلة تالية تقتضي كلاماً آخر. فالكلام على «المعركة» سيدوم وإن زالت الأسباب الداعية إلى الكلام عليها، أو لنقُلْ وإن تغيرت طبيعتها.

أقول إن الكلام على «المعركة» سيدوم، لكنه سيتحول (إن تحوّل) إلى حقوق الإنسان وإلى كل هذا الحقل من المفردات الواردة بغزارة، جهاراً أم خلسة. وإنه سيتكاثر.

فهل يكون من نصيبنا نحن، في هذا العالم الثالث، أو العربي، أو في لبنان، أن تمّحي الحدود بين الثقافة (ثقافة المثقفين طبعاً) والعلم (والأدب أيضاً)، ويبقى عالِمُنا هو المثقف ومثقفُنا هو العالِم وهو الأديب؟ وهل سيبقى هدفنا أبداً واحداً بصورة مباشرة بلا فروقات، ألن نتعلم أن هدفَ العلم غير هدف الثقافة، وأن العالِم الجيد ليس مواطناً جيداً بالضرورة، فرُبَّ عالِمٍ عظيمٍ جاسوسٌ خائن... وإلخ!

فهل ورثنا إلى الأبد هذا الخلط بين اللحظة العلمية، واللحظات الأخرى (النضالية مثلاً)! أفلا يمكن أن يكون هناك فصل بين اللحظة الخاصة بالعلم، واللحظات الخاصة بالميادين الأخرى! ألا يمكن أن نرى أن للعلم استقلالية يجب احترامها احتراماً صارماً لنكون علماء، وإلاّ ظلّ «الحابل مختلطاً بالنابل»، وظلّ الوضع الذي نحن فيه «خبيصة» لا رجاء فيها أبداً.

أم كتب علينا أن نسخّر كل شيء لـ«المعركة»، علماً وفناً وثقافةً، إلى الأبد، فيبقى هكذا عالِمُنا على الدوام مثقفاً ساحاته صفحات الجرائد والمجلات!

السؤال الأعظم

أما الأهم من ذلك كله، فهو تركيبة مجتمعنا ربما، ودور البحث العلمي (والجامعة تالياً) في هذه التركيبة، ومكانه منها، وأهميته في ديمومتها وفي إبقائها على توازنها.

أنا لا أعتقد أن البحث العلمي، هدف علينا بلوغه بغض النظر عن ضرورته في تركيبة مجتمعنا. وأقول هنا إن الجامعة اللبنانية لم تُقنع هذه التركيبة التي هي مجتمعنا، بأن البحث ضرورة لها (للتركيبة). بل إنها ـ أي الجامعة ـ لم تفكر في هذا الموضوع أبداً، ولم تسع لمعرفته. بل أكثر من ذلك، فإننا لا نملك دراسات جدية عن «جدوى» الجامعة اللبنانية (لتكون هذه الدراسات، على الأقلّ، موجِّهةً لمساعينا في إصلاحها). لا تكفي شعارات الانصهار الوطني، والثقافة الوطنية، والمستوى المادي المتدني للأستاذ... إلخ، بل إن هذه شعارات لا تقنع أحداً، بل لا معنى لها.

لكي يكون البحث العلمي قيمة في هذه التركيبة التي هي مجتمعنا، يجب أن يبرهن هو، هذا البحث، عن ذلك. النقُّ لا يجدي.

إن البحث العلمي كقيمة، لا يفرض نفسه بالهزء الساخر المر من الناس، ومن الزمان، ومن المسؤولين في السلطة، بل ببرهان ضرورته، أو فرضها. إن إشعار الناس بالذنب أمر غير لائق. وكذلك إلقاء اللوم على المسؤولين وحدهم. إن مسألة البحث والجامعة شأن وطني. هذا أمر يجب أن نفهمه جيداً، حتى لا نبقى مثقفين ثوريين عذارى، بلا خيال، نضرّ في الحقيقة أكثر مما ننفع، كما كنا وكما نزال، وكما أنه ليس في الأفق ما يبشر بأننا سنتحوّل.